

على عهد الامير

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرايم البستاني

وقد يكون من الابدن ضحايا لي سبيل آهانه
من حيث لا يعلمون

الفصل الحادي عشر

عرس غريين (تابع)

اما بدور فكانت ترى غائماً بعد ان تجرع مرارة الاسى فتألم ، واجبر على معاشره الغرباء فتحنك ، وعاش في بلاط عكاً فاعتاد التبصر . فعدا وقد استبدل بصلف ابنا. المشايخ تواضع الحكما . ، وبجراة الاغراز المندففة تودة ذوي الاختبار ، وبصراحة الشباب الفجة مرونة ارباب السياسة المعنكين . فكانت تعجب به كما كان يحترما ، وكانت تحترمه كما كان يعجب بها .
واما فرحات فكان يار في تجلد بدور وغانم حتى لا يفهم تلك القره الحفية ؛ لانه لم يكن يشعر بما يشاها في نفسه المضطربة لدى الرزايا ، وفي قلبه الحقائق لدى الخطوب ، على الرغم من تقدمه بالمر وكثرة اختباره وتنوع تجاربه . بل كان كله عاطفة لا يتالك ذرف الدموع اذا خلا بنفسه ، فيتذكر تارة الشيخ قعدان يوحيه بالسهر على غانم ، وطورا الامير جهجاه يتردد صدى اوامره في آذان الجنود ، وحينئذ الت سعدى تتسلل ببنيها النجيلة على الفراش الرثير . فيسكي الى ان تتفرح جفونه ، وتحمر عيناه . حتى اذا رأى غائماً قادماً ، اظهر من الضعف قوة وتجلد ، فيجته هذا بوجه طلق ونبرة قوية على رغم الاسى . فيكبر فرحات صبر مولاه ورباطة جأشه ويود لو تخلص من براش

الجزائر ، فيترلى رئاسة الحزب في دير القمر ، وقيادة رجاله . وما احوجهم الى جبار مثله !

وكثيراً ما كان يفتح غاماً بهذا الشأن . فيسهل له سبل الرجوع ، ويصف امامه حال رجال الحزب وما هم عليه من التضضع والتخاذل ، وحاجة الامير بشير اليه في تلك الايام العصية . فيخفي غام رأسه ويقول :

- لا يمكنني ترك عكا في الوقت الحاضر ، والجزائر لم يستلم بعد شيئاً يُذكر من اموال الميري . فوجودي هنا لازم لخدمة البلاد .

- ولكنك تخدم البلاد بوجودك فيها اكثر من خدمتك اياها باقامتك في

بلاط الجزائر !

- هذا رأيك ! وعلى فرض انه صحيح ، فهل ترى الجزائر يسبح لي

بالرجوع ، وهو لم ينل من الامير سوى المواعيد ؟

وعند الوصول الى هذه النقطة كان فرحات يمني رأسه ، ويتابع في خاطره

فكرة لم يكن يجسر على ابدائها . وهي العمل على الرجوع خفية عن الجزائر

وكانت بدور تحضر احياناً هذه المحادثات ، فتتابع في عيني فرحات نهاية

الفكرة ، وتودّ لو يتابهها غام ايضاً ، فيهرب الثلاثة الى الوطن العزيز ، حيث

يتوفر لهم قليل من الراحة ، بين الاهل والاصدقا

مرّ اربعون يوماً ، ومثّل غام لا يكاد يخرج من الزاوية ؛ وكلهم

يظهرون عواطفهم الخالصة ، ويعرضون مساعدتهم وخدماتهم . حتى كادوا ،

بلطفهم ومؤسساتهم ، يحون آثار الحزن ، ويخفقون لوعة التربة .

وكان الاب توما ومصطفى آغا لا يتخلفان يوماً عن زيارة صديقتها العزيز .

حتى اصبحت تلك الزيارات سبب علاقة بينهما فاتفقا في كثير من الافكار

والميل ، على اختلافها في المعتقد ، اذ رأى الاب توما في مصطفى آغا رزاة

يجليها النظر وتسلّأ يوتيده الاختبار فاعتبره ، وخبر الثاني في الاول فضيلة

ترينها المحبة ، وتقوى تقويها التضحية ، فاحترمه . وكانا كثيراً ما يتبادلان

الآراء في مستقبل بدور وغانم ، وغايتها اسعاد الفتى والفتاة ، وكثيراً ما كنا يتفقان .

وبينا هما مع غانم مساء احد الاعياد ، وقد خلا المنزل من الزوار ، وخرجت بدور مع فرحات لزيارة الكنيسة ، التفت الاب توما الى الشاب وقال :
- ما قد مرّ زمنٌ طي تلك المصائب المؤلمة ، يا بني . فرحم الله من رحل عنا الى ديار الخلود ، وعزّاكم وايانا عن فقدهم . وقد تكلمت طويلاً مع مصطفى آغا بشأنك وشأن بدور ، فرأينا ان حالتكما الحاضرة غير طبيعية : انت شابٌ وهي فتاة . وكلاكما غريبان في بلاد بعيدة ، تعيشان في منزل واحد . فاصحح من الواجب ان تتحدا برباط الزواج المقدس
فتنهده غانم مقاطعاً ، وقال حزينا :

- لا تزال العبرات تجرول في العيون ، يا يرنا توما ! ولم نفس بعد موتنا

الاعزّا . !

- لا انكر ذلك يا بُني . ولكني لا ازال اذكر كلمة لاحد حكما . بلادنا الفرنجية معناها ان افضل ما تقدمه لموتنا من واجبات الاحترام هو ان نصنع ما كانوا يأمرونا به لو ظلوا في قيد الحياة . فلو ظلّ المرحوم جدك قمدان ، والمرحوم عمك المير جيهجاه ؟ والمرحومة سعدى في قيد الحياة ، فما كانوا يأمرونك به ، وانت مع بدور في هذه الحالة ؟ أليس بأن تعجل بعقد القران ، فتعيش وبدور نفساً واحدة في جسدين ، تحملان معاً ثقل الرزايا فتجدانها خفيفة ، وتنشاطران متاعب الحياة فتليانها قليلة ؟

وبعد دقيقة سكوت راقب في خلالها وقع كلامه على غانم ، تابع :

- هذا ما رأيته موافقاً مع مصطفى آغا

فأمن الآغا على كلامه واردف الكاهن .

- وعليه ، اذا لم يكن لديك مانع مهم لم ننتبه له ، ارى من الموافق ان نقيم العرس ، بكل ما يمكن من البساطة ، نهار الاحد القادم . أليس كذلك ؟

فرقع غانم رأسه الثقيل بالهموم ، واجال نظراً ساكناً ؛ ثم اشار بيديه

إشارة الاستسلام ، وقال :

- كما تريد يا يونا توما ! ولكن ارجو منك ان تهتم انت بمخاطبة بدور في هذا الشأن .

وكان موعد رجوعها مع فرحات قد حان ، فخرج الثلاثة الى صحن الدار حيث رأوها قادمة ، فأشار اليها الاب توما بواجبه ، وتحول مصطفى آغا وغانم يشامدان اسواق المدينة من احدى النوافذ .

وما هي دقائق حتى دعاهما فرحات ، فدخلا الردهة ودخلا معهما . فقال الكاهن :

- لقد اتفقنا على ان تزف ابنتنا بدور الى ابنتنا غانم نهار الأحد القادم ، في البيت ، بحضور مصطفى آغا والسيدة امرأته ، ان لم يكن مانع في ذلك . ثم التفت الى الآغا فهز هذا رأسه علامة النفي . فتابع :

-- وانت يا فرحات تقوم مقام الاشيين .

* * *

في صحن الدار ، على طاولة بسيطة ، نصب فرحات شمعتين عليتين عقد عليهما باقتين من الزهور بشريطة لم ترضها بدور إلا سوداء . ثم سار يدعو الاب توما ، فجاء مع خادم الكنيسة . فاستقبله العروسان ومصطفى آغا وامرأته .

ولم يلبث ان باشر حفلة الاكليل بصوت منخفض ، فجمع بين يدي العروسين ، تالياً الصلاة المعتادة ، متبعها بالنصائح والوصايا الصالحة . ثم هناهما وتمنى لها الحياة الطويلة بصرفانها بالسعادة والهناء .

وبعد ذلك تقدم مصطفى آغا فاعاد التهنيت ذاتها بلسانه ولسان امرأته ، ودعا الجميع الى بيته . فاعتذر غانم اولاً ، ولكن الاب توما قال :

- لا بأس في ذلك !

ثم شكر الآغا عاطفته اللطيفة ، وسار فيهمه الباقون .

كانت الوليمة غاية في البساطة وحنن النوق . وقد خرق الآغا عادة الحرم

وسمح لامراته بالجلوس ، فجلست الى جنب العروس توأكلها ، وتوأنها بلطفها المهود .

* * *

قضى غانم السنة الاولى من زواجه في طمانينة وغبطة يحسده عليها كل من كان في حالته بعيداً عن بلاده ، مجرداً من اهله ، غريباً بين قوم لا يفهمهم ولا يفهمونه . على انه لم يكن ليالي بسوى عائلته الجديدة ، منصرفاً جهده عن التدخلات السياسية ، معرضاً ما استطاع عن ديوان الجزّار ، جاهلاً جميع الاخبار ألا ما كان يأتيه به فرحات مرة كل خمسة عشر يوماً ، من حوادث الجبل ، وحالة الامير بشير وموقفه من الاحزاب اللبنانية عامة ومن الجزّار خاصة . وكلها كانت اخباراً سادة بالاجمال تبعث في غانم الأمل بالرجوع لمشاهدة اميره ، والاخرط في جيشه .

وكان ممّا اخبره به فرحات ، في اوائل سنة ١٧٨٧ ، ان الامير بشير يرّ بقسه في ما نحن الإنتقام للامير جبهجاه من النكدية . فانه اتفق مع المشايخ الجبلاطية والهادية على التخلص من آل ابي نكد . وما لبث ان استدعى الى دير القمر اولاد الشيخ كليب الخسة وهم بشير ، وواكد ، وسيد احمد ، وقاسم ، ومراد . فدخلوا مجلسه وفيه جمهور من الجبلاطين والهاديين ، فاجلس كل شيخ نكدي بين اثنين من اعوانه . وبدأ يوتجهم على سو . صنيمم حتى اذا احتدم غيظه ، قام غاضباً وخرج من القاعة متلقاً الباب . فا كان من مشايخه ألا ان اتضوا كل واحد على جاره منمداً خنجره في بطنه . ثم جرّوهم فرموهم في بئر هناك دُعيت من ثم « بئر النكدية » . ولكن الامير لم يكف بتلك المعزرة ، فادس بعض رجاله الى اعبيه ليقبضوا فيها على اولاد الشيخ بشير ابي نكد ، وهم اربعة : علي ، وجبهجاه ، وسعد الدين ، وكليب . فقرّوا منها الى وادي الناعمة واختاروا هناك مدة ، حتى اكتشف مقرّم اعوان الامير فاقروهم اليه . وبعد ان عدّتهم زمناً في سجنه ، ارسل اليهم المشايخ الهادية فقتلواهم جميعاً . وكان البعض من ابنائهم الصغار همروا الى دمشق برفقة الشيخ سلمان ، فأمر الامير بضبط املاكهم كلها ، فأخذ له منها جزءاً واعطى الباقي لمن

ساعده على قتلهم من المشايخ .

لم يكن هذا الخبر ليسر غائماً لما كان في خلقه من الرأفة الطييبة والترفع عن القسوة والشراسة . ولكنه لم يكن ليسوه كثيراً لما كان في قلبه من حرقه على الامير جهجاه ، ولما كان في عقله من تأثير عادات زمنه بوجوب المعاقبة الصارمة وقمع الشر بالشر ، حتى انه كان على الرغم من اشتزازه الظاهر لتلك الفظائع ، يشر بما لم يكن يحسر على اظهاره من الارتياح للأخذ بشأ الامير جهجاه ، ولتطهير البلاد من بعض الخونة المفسدين .

أمّا علاقات الامير بالجزائر فكانت على غاية ما يُرام . اذ كان الامير لا يترك فرصة ألا اغتتمها لاطهار تعلقه ببولى عكا ، وامانته في تنفيذ ارادته ، وخصوصاً لاطهار استعداده لدفع اموال « الميري » المتركة . ألا ان هذا الاستعداد الطيب لم يكن يتجاوز محيط الكلام ألا نادراً ، حتى كان الجزائر كثيراً ما يفتاظ من تلك المعاملة ، فيستدعي غائماً ويخاطبه بلهجة تنم عن استيائه من تلك الحالة ورغبته في تقصير زمن الماطلة والتسريف . فيجتهد غانم في تخفيف غضبه تارة بتصوير حالة الجبل في اشنع مظاهرها من حيث المحل او تشويش الامن ، وطوراً باغداق المواعيد الخُلابة التعلق وذاورها بانتها. زمن المواسم المختلفة . ثم يكتب الى الامير بشير مدحاً عليه بارسال شي . من المال ، ويرجع الى بيته مروراً من جهاده في سيل اميره ، فيتناسى كل شي . اذ يدخل حجرتة فيحي امرأته ، ويداعب صغيريه . وكانا توأمين ذكراً وانثى من الله بها على تلك العاثة القريبة ، فخلصاها من الرحشة والضجر اذ اصبحا عالماً كاملاً في نظر والديهما اللذين كانا يصرفان الساعات ، مع فرحات او . مصطفى آغا او امرأته ، بالتأمل في قصت وجه قعدان — وهو اسم الطفل — او بتعميد محاسن سعدى — وهو اسم الطفلة . وكثيراً ما كان ينتصر الاب للطفلة فيفضلها على اخيها ، فتتناظ بدور وتبدأ ببرد حاسن قعدان . ويمضي غانم في تفضيله مؤيداً رأيه بشهادة امرأة مصطنى آغا ، فتقابله بدور مستعينة برأى فرحات . حتى اذا احتدم الجدال التجنا الى الحكم يفصل بينهما ، ولم يكن سوى مصطنى آغا ، قدماً اليه الصغيرين وادلى كل فريق بحججه . فكان الآغا

بتهمة عالياً ويحكم بالساواة . ثم يقبل الطفلين الصغيرين ، ويتهمة ثانيةً ضاحكاً من الطفلين الكبيرين .

* * *

على مثل هذه الحال كان يقضي غانم قسماً وافراً من ايامه ، حتى اذا كان المساء وقام الصغيران ، جلس الى مصطفى آغا يلاعبه بالترد ، او يسأله عن آخر اخبار الديوان ، بينما كانت بدور تحدث امرأة الآغا منصرفة في الوقت نفسه الى قتل مغزلاً ، او ترقيع بعض الثياب . أما ليلة وصول فرحات فكان يجلس الجميع صامتين مستمدنين لساع ما جمعه من الاخبار اللبنانية ، وما سمعه من الاشاعات عن ابني الامير يوسف ورجال الحزب الماكس ، وما صادفه في الجبال والادوية التي تفصل عكا عن دير القمر . فيروي فرحات امامهم ما توافق روايته من الاحاديث المختلفة ، ويحتفظ بالاخبار المهمة يسرّها الى غانم على حين خلوة منه .

وفي ليلة من خريف سنة ١٧٩٢م مكفهرة الافق ، ثقيلة الهوا ، هبت فيها عاصفة شديدة جيئت الصيوم السوداء من البحر الى الجبال المقابلة ، ولم تلبث ان لفتها الريح الباردة فتساقطت برداً كبيراً تحول الى مطر مدار دام نحو الساعة ، فجرت السيول جارفة كل آثار الصيف المتجمعة في الازقة والاسواق ؛ وفرغ الناس الى بيوتهم يتقون الفيضان متستين من تلك البروق المتكسرة الحافظة الابصار التي كانت تعقبها الرعود المتتالية القاصفة بسرعة غريبة تدل على اشتداد العاصفة وعلى قرب موقع الصواعق ؛ في تلك الليلة التي برد فيها الهوا . فجأة بعد حر الصيف ، خاف مصطفى آغا ان يهب العاصي في مفاصله ، فأوى باكراً الى فراشه ، تاركاً غانماً وامراته نحو الساعة الثانية بعد الغروب . أما هذان فهرا الى الثالثة . ثم قامت بدور ، ترضع ولديها فركمت الى جنب السرير المزدوج . وقام غانم ليرى هل سكنت العاصفة . فا كاد ينتح النافذة المطلّة على البحر حتى نشب بارق ساطع تله قصفة هائلة بدأت مفردة ثم جعلت تتقطع وتضغ شيئاً فشيئاً الى ان تلاشى صدامها في طيات النمام . فانفض الطفلان لشدة الصرت ، ودرست بدور على وجهها اشارة الضييب ، وتمتت :

— الله يساعد المسافرين في هذه الليلة ! يا ربّي خلّص فرحات !
 فقال غانم :

— ليس الليلة موعد وصوله ، فلا تخافي ، فضلاً عن ذلك فان العاصفة
 اشدّ رقعها في البحر ، اما في البرّ فلا تكاد تتجاوز حدود المدينة .
 ثم اقبل النافذة ، واتجه الى الباب فاحكم قفله . وانتظر ريثما انتهت
 بدور من ارضاع الطفلين ، فاطفاً النور وتحوّل الى فراشه .
 وما كاد يلمّ النوم بعينه حتى قرع الباب قرعاً شديداً متتالياً . فاذا بدور
 تفتيق صاخمة .

— فرحات ! فرحات !

وتسرع الى المرجة فتثيرها ، بينما كان غانم يفتح الباب ويستقبل من
 ذكرته ، وعلى وجهه علامن الاستغراب ، لتلك السرعة ، وفي ذهنه افكار
 سوداء . تنذر بوقوع خطر مفاجئ .

وما كادت انوار المرجة تنعكس على وجه فرحات حتى دُعرت بدور
 لشحوبه ، وارجس غانم خوفاً فصوّب اليه نظراً متفهماً . فانطرح فرحات على
 الارض بعد ان اقبل الباب ، وقال :

— لا تخافا ! ان بعد المشقة ، وشدة العاصفة ، وسرعة الير اتعبني ،
 وليس في ما احمله شيء من الشر .

ثم فكّ ازرار صدرته وناول غانماً تحويراً ، وانصرف ناحية بدور تضرّم
 له النار وتمطيه ثياباً كي يستبدلها بثيابه المبلّلة .
 اما غانم فكّ الحاتم الاميري عن الكتاب وقرأ :

« حضرة عزيزنا الشيخ غانم بو غانم حفظك الله .

« مطومنا انك وارث لكل صفات الرجولية والاخلاص للحزب التي امتاز
 بها اهلك الكرام لاسيا شيخنا ومدبرنا الكبير المرحوم الشيخ قعدان ، وعزيزنا
 الفريد العالي المرحوم الامير جهجاه . فلهذا السبب نخبرك ان الحزب بحاجة الى
 فطنتك ودرابتك في هذا الوقت . وذلك كون اعدائنا المروفين ابني الامير
 يوسف وكاخيتهم برجس باز وبعض رجالهم بعد ان هربوا ملتجئين الى دمشق

حيث انعم عليهم الوالي عبدالله باشا واقامهم في حماه وعين لهم الميرة سمنا انه جرى مظاهرات بينهم وبين الجزائر وانه كتب لهم ان يحضروا اليه الى عكا آمنين . وفي علمك كفاية عما يمكن ان تكون نتيجة هذه المخابرات . فالمطلوب منك يا عزيزنا ان تختبر الحالة في عكا وتعرف نوايا الجزائر وتعدده عن لساننا اذا لم الأمر بالمواعيد الكثيرة وواصلك صحة فرحات حمل من المال امكنا جمه في هذه المدّة فله آياه وقل له يأتي الباقي في اقرب وقت . دبر الامور كما ترى الموافق وجاوبنا حالاً مع الرسول ذاته وفي فهك كفاية من وجوب كتم السرّ ووقتك الله .

عن دير القصر في ١٢ ايلول سنة ١٧٩٧

الامير بئر قاسم عمر

الشرابي

ولم يطوّر الكتاب حتى رجع فرحات قبلته سلام كاتب الكتاب ، وهو معلمه القديم نقولا الترك . ثم جلس يتناول عشاءه ، وكانت بدور اسرعت باعداده من حواضر البيت ، ويروي لهم ، بين اللقمة واللقمة ، كل ما سمعه من الاخبار والاشاعات في طريقه . وكان غانم قد اعطى التحرير الى بدور فقرأته بسرعة كمي لا يفوتها شي . من اخبار فرحات ، وردّته خائفة من ان يكون ما فيه صحيحاً ، ومن تغير مفاجئ قد يكون طراً على عقل الجزائر .

* * *

ما ارتفعت شمس اليرم التالي حتى كان غانم يستأذن على الجزائر وورائه فرحات يحمل كيسين ثقيلين . وكان المولى منفرداً في كشكه الخاص يدخن ماسورته ، وحاييم اليهودي ، امين صندوقه ، يسرد عليه مبالغ التفقات وما يقابلها من الوردات . والجزائر يقول له :

(لها بقية)